إشكالية الحداثة في الفكر العربي المعاصر من التأسيس إلى النقد.

حمادي هواري.

قسم الفلسفة، جامعة معسكر.

يبدوا لنا للوهلة الأولى أن موضوع الحداثة في الفكر العربي، يعتبر من المواضيع المستهلكة التي استوفت حقها من الدراسة، بالشرح والتحليل والنقد، ولكن بما أنها أصبحت في الفترة المتأخرة الهاجس المركزي والهم المشترك لمفكري العرب المعاصرين، ونتيجة لاختلاف الآراء في طرحها من زوايا مختلفة، من حيث مفهومها وآليات بلوغها ونتائجها... حسب علاقتها الوطيدة بالتراث ومن منطلق أثرها على واقعنا راهنا ومستقبلا، فإنها من دون شك تبقى دائما من المواضيع التي تحتاج إلى مزيد من الدراسات والتحليلات الفلسفية والعلمية، ولاسيما إن كان من العسير بلوغ طرح موضوعي وفعال لها حسب قابليتها للأدلجة وحساسيتها وخطورتها في أمة تعيش على الماضي أكثر من الاهتمام بالحاضر وتجعل من الحداثة طموحا واستشرافا تسعى إلى بلوغه بالتطلع إلى تجاوز شبح التخلف والانحطاط، و تمثل عندها في الوقت نفسه مأزقا ومعضلة، أفرز الكثير من المخلفات عليها في شتى المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية... لا تناسب تراثها وهمومها وواقعها المحلي.

من هذا المنطلق سنحاول بناء طرح جديد أو بالأحرى متجدد لمسألة الحداثة في الفكر العربي المعاصر، يقوم على البحث في حقيقتها كإشكالية فلسفية يحتاج الكثير من القراء إلى إدراك المنطلقات التي تتأسس عليه والتداعيات التي آثارتها، ولاسيما إن كانت وما تزال مسألة تثير الكثير الخلاف والجدل من زوايا عدة، أهمها مفهومها، وآلياتها، علاقتها بالتراث ونقدها...وذلك بالرجوع إلى رواد وأقطاب الفكر العربي في طرحها: كالجابري وأركون وطه عبد الرحمن... .

ومن أجل معاجة مختلف الرؤى المتعلقة بالحداثة، آثرنا أن نشير إلى المدلول الذي توحي به الحداثة، ثم تحليل الرؤى المتعلقة بها، من التأسيس لها كمشروع يحاول النهوض بالعرب وانتشالهم من براثن التخلف، إلى النقد لها كمشروع جاهز مستهلك غير قابل للتطبيق في مجتمع غير المجتمع الذي نشأت وترعرعت في كنفه، وذلك وفق ثلاث محطات وهي:

1- مفهوم الحداثة ومقوماتها: سنطرح فيه المقصود بالحداثة كمصطلح وصفاتها الجوهرية.

2- تأسيس الحداثة في الفكر العربي كمشروع يطمح إلى إنقاذ العرب من شبح التخلف.

3- نقد الحداثة في الفكر العربي كمشروع أثار الكثير من الردود من زوايا مختلفة تستحق الإثارة ولاسيما إن كانت تعكس عدم جدواها كدواء لمعالجة داء التخلف.

مفهوم الحداثة:

يبدأ الحديث عن الحداثة بالبحث في مفهوم ومعنى كلمة 'حداثة'، الذي يجعلها مسألة خلافية لم يتفق الفلاسفة والمفكرين حول مفهومها، فما المقصود بها؟

في اللغة:

- ترتبط الحداثة في مختلف اللغات بكلمة الحديث الذي يمثل الجديد ونقيض القديم:
- في اللغة العربية: تعود الحداثة إلى كلمة الحديث وهو "نقيض القديم. والحدوث نقيض القدمة. حدث الشيء يحدث حدوثا وحداثة، وأحدثه هو، فهو محدث وحديث، وكذلك استحدثته"،[1] فالحداثة تشتق من المستحدث ويرادف الجديد والطارئ، حيث قال:" حداثة السن: كناية عن الشباب وأول العمر"[2] أي ترتبط بالجديد وكل ما هو غير قديم، وبالتالي فالحداثة تشتق من "الحديث و المحدث من الأمور والآراء وهو الجديد الطارئ منها، والذي لم يكن معروفا ولا شائعا. وهو يستعمل إما للمدح فيدل على تفتح الفكر وإطلاعه على ما جد من المعارف وانعتاقه من التقليد، وإما للذم فيدل على الطيش والانسياق وراء كل جديد من الحاضر ومن دون تمعن في الماضي"[3] إذن الحداثة في اللغة ترد إلى كلمة المحدث وهو الجديد الطارئ.

- في اللغة الفرنسية: ورد في 'معجم لالاند' أن كلمة moderne بالمعنى التقني "يتعارض مع الوسيط 'وأحيانا باتجاه عكسي مع المعاصر': التاريخ الحديث هو تاريخ الوقائع التالية لسقوط القسطنطينية في سنة 1354، الفلسفة الحديثة هي فلسفة القرن السادس عشر والقرون التوالي حتى أيامنا، مع ذلك غالبا ما يطلق على باكون وديكارت اسم مؤسسي الفلسفة الحديثة.[4] هنا ندرك وجود علاقة وطيدة بين الحداثة والعصر حديث والفلسفة الحديثة تحديدا التي بدأت منذ الثورة على الفكر القروسطي مع بيكون وديكارت.

في الاصطلاح:

من الصعب أن نحدد مفهوما دقيقا للحداثة، فهي "مصطلح يشير إلى مرحلة تاريخية مرت بها أوروبا[5] أي مرحلة العصر الحديث التي حدثت فيها الثورة على الفترة القروسطية، ويختلف الفلاسفة والمفكرون حول بداية الحداثة "فالمفكر الأميركي البرجماتي (ريتشارد رورتي) يلحق الحداثة بفكر ديكارت (القرنان17/16الميلاديان) والمفكر الألماني (يورغان هابرماس) يربطها بعصر الأنوار(القرن الثامن الميلادي)، والناقد الأدبي الأميركي (فرديريك جيمسون) يحدد تاريخ ميلادها في النصف الأول من القرن العشرين"،[6] فهي تعبير عن مرحلة جديدة مرت بها أوربا من الصعب تحديد بدايتها الدقيقة لكن يمكن القول أنها مرحلة ما بعد انحسار سلطة الكنيسة والمقدس لحساب سيادة العقل والإنسان في أوربا، عرفت من خلالها ثورة علمية وفكرية وفلسفية ترتب عنها تطورها في شتى الميادين فيما بعد. و الحداثة في جوهرها تصور جديد للراهن يقوم على الثورة على الماضي في مستويات مختلفة بإبداع وسائل جديدة في التفكير وسلوكيات جديدة، وهي في الأصل غربلة للماضي وليست قطيعة نهائية معه إذ تقوم على مواكبة ما هو إيجابي منه وتجاوز ما هو سلبي منه من أجل الخروج من مأزق التخلف والنهوض بالمجتمع.

إذن من دون شك مفاهيم الحداثة تتعدد وتتنوع، "فقد عرفها البعض بأنها حقبة تاريخية ابتدأت في أقطار الغرب، ثم انتقلت آثارها إلى العالم بأسره"[7] وذلك حسب مدة معينة اختلفوا في تحديدها بين خمسة قرون أو قرنين، واختلفوا في مسارها بدءا من القرن السادس عشر إلى فترة الثورة المعلوماتية، "وعرف بعضهم الآخر الحداثة بصفات طبعت بقوة عطاء هذه الحقبة مع اختلافهم في التعبير عن هذه الصفات وعن أسبابها ونتائجها، فمن قائل إن الحداثة هي النهوض بأسباب العقل والتقدم والتحرر، ومن قائل أنها ممارسة السيادات الثلاث عن طريق العلم والتقنية: السيادة على الطبيعة والسيادة على المجتمع، والسيادة على الذات، بل نجد منهم من يقصرها على صفة واحدة فيقول إنها قطع الصلة بالتراث أو إنها طلب الجديد أو إنها محو القدسية من العالم أو إنها العقلنة أو إنها الديمقراطية أو انها حقوق الإنسان أو قطع الصلة بالدين أو إنها العلمانية..."[8].

حسب هذه التصورات التي تحدد مصطلح الحداثة كما بينها المفكر 'طه عبد الرحمن'، فإن الصفات الجوهرية والمقومات المحددة للحداثة تكمن في: خضوعها لفترة تاريخية معينة هي تلك التي عرفت جملة من التغيرات في أوربا كالاصلاح الديني والثورة الصناعية، وفي قيامها على تقويض سلطة الكنيسة والدعوة إلى العقلانية والتحرر عن مختلف القيود التي كانت تفرضها باسم الحرية المطلقة والإعلاء من قيمة الإنسان وعدم محدودية سلطان العقل، وفي الخروج من سياج المقدس وهيمنة الدين والأنظمة والاستبدادية بسلطاتها المختلفة والدعوة إلى العلمانية والديموقراطية...، كما أن الحداثة "جملة التحولات العميقة التي طرأت على المجتمع الغربي منذ خمسة قرون، ولكن السمة المميزة لهذه التحولات أنها تحولات إنمائية تراكمية بحيث نقلت المجتمع الغربي من طور حضاري إلى طور يعلوه تقدما، وهذه سمة أساسية"،[9] أي باختصار الحداثة هي مرحلة جديدة مرت بها أوربا وفق تحولات تدريجية على الأصعدة المختلفة، تعتبر ثورة وتقويضا لمرحلة التخلف والانحطاط التي كانت تقبع فيها أوروبا في الفترة الوسيطية.

وقد تأسست الحداثة على جملة من المقومات، لأنها " من وجهة النظر الفلسفية تقوم على الرؤية الذاتية للوجود، والنزعة العقلانية في المعرفة، والقول بالعدمية والنسبية في مجال القيم"،[10] بحيث انطلقت الحداثة من مبدأ الذاتية الذي يرتبط بما يسمى بالنزعة الإنسانية، "فهذا المبدأ يعني مركزية ومرجعية الذات الإنسانية وفاعليتها وحريتها وشفافيتها وعقلانيتها"[11] بحيث يصبح الإنسان بموجبها سيدا للوجود هو المتحكم في الكون والطبيعة، كما عبرت عن لحظة انتصار العقل على الأسطوري والديني والإيديولوجي، وأسست لنفي إطلاقية القيم والقول بنسبيتها، فهي مرحلة سيادة الذات والعقل في الوجود باسم مركزية الإنسان فيه وسلطته المطلقة على مختلف المستويات، إضافة إلى ذلك "تتميز الحداثة بتطوير طرائق وأساليب جديدة في المعرفة قوامها الانتقال من المعرفة التأملية إلى المعرفة التقنية...عمادها الملاحظة والتجريب والصياغة الرياضية والتكميم"[12] لأنها تهدف إلى اضفاء الطابع التقني على العلم وعلى الثقافة ككل.

من خلال ما سبق تتميز الحداثة بأنها تعبير عن مرحلة تاريخية عاشها الإنسان الغربي على وجه الخصوص والذي انتقل في الفترة المتأخرة إلى مرحلة ما بعد الحداثة التي يمكن القول أنها مرحلة متقدمة من مرحلة الحداثة تعتبر امتدادا لها باعتبارها مشروعا غير مكتمل بتعبير 'هابرماس'، ولكن الحداثة وإن كانت وليدة بيئة أوربية وواقع غير واقعنا فإن ما ترتب عنها من تقدم علمي هائل للآخر وسيادته المطلقة على العالم الأجمع في حين تخلف الشعوب العربية عن ركب قطارها، والذي من دون شك تتأثر به تلك الشعوب ولاسيما في عصر العولمة والثورة المعلوماتية...فإن تطرح مأزقا لدى العرب في كيفية استلهامها والاستفادة منها والحماية من رياحها العاتية، هذا ما جعل المهمة الكبرى لمفكري العرب المعاصرين، هو طرح إشكالية: كيف يمكن ركب قطار الحداثة؟ وإذا كانت هذه الحداثة ليست حداثتنا التي ننشد بلوغها فكيف نتعامل معها؟ وهل نملك البديل لها الذي نستطيع بموجبه تأسيس حداثة خاصة بنا؟

تأسيس الحداثة في الفكر العربي:

يقوم تأسيس للحداثة في الفكر العربي، على جانبين محوريين، الأول جواني يتعلق بالأنا بثقافتنا المحلية، ألا وهو ذلك الكم الهائل من التراث الذي بنى ماضينا وما فتئ يصنع حاضرنا ويخطط لمستقبلنا، والثاني براني ويرتبط بالآخر يقوم على ضرورة إيجاد نمط للعلاقة معه يقوم على التفاعل بدل الانفعال، في إطار ثنائية الأنا والآخر تم التأسيس للحداثة وفق آليات متعددة ومتنوعة أهمها قراءة التراث:

1- صلتها الوطيدة بالتراث: على خلاف الحداثة في أوروبا التي قامت على القطيعة مع التراث القروسطي الكنسي، ينطلق مختلف مفكرو العرب من وجود علاقة وثيقة بين الحداثة والتراث، ويرفضون كل فصل بينهما، وإن بدا وجود ذلك الفصل في بعض رؤى العرب فإنه من دون شك يخفي في طياته اتصالا وثيقا بين تعاليم التراث ومقتضيات الحداثة، وذلك حسب خصوصياتنا المحلية حيث نشأنا وترعرعنا في كنف حضارة تقوم على النص، "بمعنى أنها حضارة أنبتت أسسها وقامت علومها وثقافتها على أساس لا يمكن تجاهل مركزية النص فيه"،[13] فالأهمية التي يكتسيها النص-سواء أكان قرآنا كريما أو سنة نبوية أو قولا لصحابي...- في إرساء دعائم حضارتنا العربية الإسلامية ولاسيما تلك التي تتمثل في جملة العلوم والثقافات المؤسسة لها.هي من يجعل تأسيس الحداثة عندنا يتخذ بناء فهم جديد ومعاصر للنص منطلقا للتحديث حسب قراءة جديدة له تكون مواكبة لمستجدات ومعطيات الحداثة كالحرية والديموقراطية والأنسنة...، في هذا الصدد يؤكد الجابري (ت2010) أن هنا علاقة وثيقة بين الحداثة والتراث، يقول: "سؤال الحداثة سؤال متعدد الأبعاد، سؤال موجه إلى التراث بجميع مجالاته وسؤال موجه للحداثة بكل معطياتها وطموحها"[14] وذلك لأن "الحاجة إلى الاشتغال بالتراث تمليها الحاجة إلى تحديث كيفية تعاملنا معه خدمة للحداثة وتأصيلا لها"،[15] وهنا يشير إلى ضرورة الدراسة العقلانية والنقدية للتراث بتحديث مناهج وأدوات فهمه خدمة للحداثة عن طريق قراءة التراث بوصفه معاصرا لنفسه ومعاصرا لنا، والغاية من دراسة التراث وإعادة النظر في المهمش فيه والمسكوت عنه، وتحريره من الطرح الإيديولوجي الذي طاله في مختلف العصور هو الغاية الكبرى لمفكري العرب المعاصرين من أجل قراءة النصوص المؤسسه له وعلى رأسها النص القرآني والنص النبوي قراءة علمية بالإمكان الاستفادة منها في مواجهة براثن التخلف وركب قطار الحداثة.

2- العلاقة مع الآخر: يعتبر فهم مسألة العلاقة مع الآخر المنطلق الجوهري لفهم مسألة الحداثة لدى مختلف المفكرين العرب، الذين طرحوا بإلحاح مفارقة الغرب العدو –الاستعمار الأمبريالية- والغرب الحضارة –التطور التكنولوجي والعلمي-، إذ لابد في نظر مختلف دعاة التنوير منذ الحقبة الاستعمارية، من بناء النظرة الإيجابية للآخر والوعي بمحاسنه على حساب مساوئه التي كانت لها الأولوية دائما، ومن أهم مقومات الحداثة في نظرهم بناء علاقة إيجابية تفاعلية مع الآخر تتجاوز طابع العداء له والانفعال به في الوقت نفسه، بما أنه النموذج المتقدم المتحضر الذي وجب الاحتكاك به والاستفادة من تجاربه، ولكن هذه المهمة حالت دون تجسيدها حوائل لا تحصى ولا تعد أهمها، التاريخ الاستعماري والحقد المتبادل بين الأنا والآخر، الهوية المحلية القائمة على مقومات الدين الإسلامي واللغة...وغيرهما من المقومات التي أولت في غالب الأحيان في فهم منغلق يرفض الآخر ويعتبره العدو فقط، من هذا المنطلق نستطيع القول أن بناء نظرة فعالة للآخر هي المهمة المناطة لدى دعاة الحداثة في الفكر العربي.

الآخر في المفهوم العام كل ما هو مغاير لمصطلح الأنا –الهوية- الذي يقابله، وكل ما لا ينتمي لثقافتنا المحلية في مقوماتها المختلفة كالدين واللغة والعادات والتقاليد...أوكل ما له هوية غير هويتنا، "في الأعم الغالب هو المختلف في الملة"[16] أي المختلف عنا في الدين وهو

عند العرب يتمثل في الغرب حسب علاقات تاريخية –أهمها الاستعمار– التي جعلته مغايرا لهم بل وعدوا لهم وفي الوقت نفسه صاحب المدنية والحضارة التي يحب استلهامها والاحتكاك بها لركب قطار الحداثة في نظر مختلف المفكرين، وهذه المفارقة بين الآخر العدو والآخر الحضارة، نتج عنها ما يمكن أن نسميه مأزق الحداثة الذي ازداد حدة بازدياد اختراق الآخر لنا بعد التطور الحاصل على شتى المستويات ولاسيما في وسائل الاتصال، فنحن ما نزال نرفضه حتى بعد ظهور العولمة التي تتطلب الاندماج معه، وهو "لا يزال الآخر يخترقنا بأشكال مختلفة هي اليوم أكثر قوة وفعالية مع صدمة جديدة نعيشها اليوم هي صدمة العولمة (le choc de globalisation) ولكننا نحن مازلنا نقاوم بوسائل كلاسيكية وبنية ذهنية تحتاج إلى المعاودة والبناء والاجتهاد"،[17] ومن أجل تجاوز هذه الآليات الكلاسيكية والبنية الذهنية القائمة على رفض الآخر، ينطلق تأسيس الحداثة عندنا من الوعي بالآخر الحضارة وتجديد النظرة حوله خارج سياج العدو والكافر لكي نستفيد منه في تأسيس الحداثة المنشودة في ظل واقع أصبح هو فيه في مرحلة ما بعد الحداثة.

نقد الحداثة:

الحديث عن نقد الحداثة الغربية واستقبالها لدى المجتمعات العربية، يعتبر من النقاط الجوهرية بصدد الحديث عن مسألة الحداثة، إذ يؤكد الكثير من العلماء والفلاسفة والمفكرين بمختلف اتجاهاتهم أن لها إفرازات وانعكاسات لا تحصى ولا تعد:

يبدوا للكثيرين أن الداعين للحداثة دعوا إلى اسقبالها كما وجدت في أوروبا أي كنموذج للتطبيق إلا أن أغلبهم في واقع الأمر ينتقدون نقلها وتطبيقها بحذافيرها كما وجدت في مجتمعنا العربي الإسلامي، حيث يتحدثون عن حداثة خاصة ويرفضون عالمية الحداثة الأوربية، فهذه الأخيرة في نظر الجابري (ت2010) "لا تستطيع الدخول في حوار نقدي تمردي مع معطيات الثقافة العربية لكونها لا تنتظم في تاريخها، إنها إذا تقع خارجها وخارج تاريخها لا تستطيع أن تحاورها حوارا يحرك فيها الحركة من داخلها، إنها تهاجمها من خارجها مما يجعل رد الفعل الحتمي هو الانغلاق والنكوص"،[18] وهنا لابد من مراعاة السياق التاريخي الغربي للحداثة وتمايزه عن السياق العربي لكي نتفادى كل تمرد ورفض المحلي للخارجي، في السياق ذاته يؤكد 'أركون' (ت 2010) أن لاستقبال الحداثة الأوربية عند العرب إفرازات ونتائج سلبية تستحق الدراسة والاهتمام، "بل وتستحق تحريات ميدانية ودراسات علمية ونظرية واسعة لكي نفهم كيف استقبلت الشعوب الأخرى هذه الحداثة التي ولدت في سياق آخر وتاريخ آخر غير تاريخها"،[19] وذلك لخطورة هذه المسألة وانعكاساتها على واقع الشعوب العربية والإسلامية، تلك التي تظهر على وجه الخصوص في العنف والإرهاب والصدام الحضاري... وغير ذلك من الإفرازات في العالم المعاصر، باعتبار "تلك المعطيات التاريخية تمثل إحدى إفرازات الحداثة في هذا النصف الثاني من القرن العشرين. فالحداثة لها سلبياتها أيضا وليست كلها إيجابيات. للحداثة مخالب تحت قفازات من حرير"[20] ولاسيما في ما تجلى عنها من شرخ عميق بين الشرق الممثل في الدول العربية والإسلامية على وجه الخصوص والغرب المتمثل في أوربا والولايات المتحدة الأميركية كما جسد ذلك "صموئيل هنتنغتون" في كتاب –صدام الحضارات– وكما تجلى في الواقع من حروب دامية في الدول العربية والإسلامية في العراق وأفغانستان... وحركات ارهابية وأصولية قامت على نقد كل ما ترتب عن الحداثة في الجزائر ومصر...، وهو ما ترتب عنه عنف وصراعات دامية انتهت إلى موت الملايين من البشر، وخراب الكثير من الدول، إذن مختلف الآراء التي وردت عند الفلاسفة كالجابري وأركون...تركز على إيجاد آليات خاصة لاستقبال الحداثة الأوربية لتفادي إفرازاتها تقوم على مراعاة ظروفها وبيئتها التاريخية ولكنها لا ترفض الحداثة الأوربية في ذاتها وتقدم البديل لها كما تجلى عند المفكر طه عبد الرحمن الذي يرى ضرورة تأسيس حداثة محلية –حداثة إسلامية– بديلا للحداثة الأوربية.

ففي نفس هذا الاتجاه الناقد للحداثة وروادها، كرس المفكر المغربي المعاصر 'طه عبد الرحمن' مختلف جهوده، لكن وفق رؤية جديدة تقوم على تأسيس البديل للحداثة الأوربية إذ انتقد مختلف الرؤى الفلسفية التي طرحت مسألة الحداثة في الفكر العربي المعاصر، وفي الوقت نفسه هو على خلاف علماء الدين لم يكتف بالهدم والتقويض للآراء الداعية للحداثة بل قدم البديل لها هو ما سماه بالحداثة الإسلامية.

اشتغل –طه عبد الرحمن– على نقد الحداثة الغربية في كتابه: 'سؤال الأخلاق' مبينا أن الحداثة الغربية مرتبطة بحضارة القول كتسمية أطلقها على الحضارة الغربية،[*] لأن هذه الأخيرة آثرت القول على الفعل، الذي انتهى بها إلى آفات تضر بالأفعال ضررا كبيرا، لأنه "لما كانت الأفعال هي بالذات الجانب السلوكي من الإنسان كما أن الأقوال هي الجانب النطقي منه، تطرقت هذه الأضرار إلى الكيان الخلقي للإنسان فكانت بمنزلة جلية من ظلم الحضارة الحديثة للإنسان[21] وذلك لما ترتب عن اهتمامها بالقول على حساب الفعل من آفات، تم بموجبها تضييق رقعة الأخلاق وذلك بفصلها عن النظر والمنطق، وقهرها على الجمود في حالة واحدة في مجال ضيق ومحدود جد لا تصلح

بموجبه لتنظيم حياة الناس مجتمعة، وجعلها تخدم الضعف في النفس والخذلان في السلوك، وهي ما جعلت الفعل الخلقي محدودا ومقطوعا ومنبوذا في حضارة اليوم.

كما ينتقد 'طه عبد الرحمن' الداعين للحداثة الغربية، مؤكدا أنهم "توهموا أنها واقع لا يزول، وحتمية لا تحول، وأنها نافعة لا ضرر فيها، وكاملة لا نقص معها"،[22] أي أنها هي النموذج الوحيد الكامل والنهائي والنافع للجميع وجب أن تنقل لجميع الشعوب التي قبعت في شبح التخلف لكي تخرج من براثينه إلى مصاف التقدم كالشعوب العربية والإسلامية، ولذلك هم في نظره تكلموا عن واقع الحداثة في حين المفروض أنهم يتكلموا عن روح الحداثة، حيث "يجب أن نبحث عن الحداثة كقيم لا يجب أن نبحث عن الحداثة كواقع، واقع الحداثة قائم لا ننكره ونتصل به وننقده وننقل عنه وما إلى ذلك، ولكن ليس تقليد هذا الواقع هو الذي يدخلنا إلى الحداثة المرجوة، فلابد أن نبحث عن هذه القيم التي يعد الواقع تحقيقا لها"،[23] إذن اهتم مختلف الداعون للحداثة بنقل نموذج جاهز منها وتقليده بحذافيره كما حصل في الغرب، ولم يفرقوا بين الروح المتمثلة في جملة القيم والمبادئ والواقع الذي يعتبر تجسيدا لها، ولذلك عبر عن حداثة الزمن لا حداثة القيم، وواقع لا روح الحداثة، وعن التقليد لا الإبداع في بنائها، وهذا لا محالة مآله الفشل في نقل العرب من مصاف التخلف إلى قطار الحداثة لأنه تطبيق لنموذج غير مناسب لواقعهم وتمرد على قيمهم ومبادئهم التي تؤسس لحضارتهم الخاصة.

إضافة إلى آراء الفلاسفة من أهم نقاد الحداثة، هم المفكرين من أصحاب التوجهات الدينية الإسلامية، الذين أكدوا "أن الحداثة العربية تحارب الفضيلة وأخلاقيات المجتمع وتدعوا إلى لانحلاله، فمختلف علماء الدين من انصار الاتجاهات التيارات الأصولية والسلفية يذهبون إلى أن الحداثة تنتهي إلى الانحلال الخلقي وتقويض القيم السائدة في المجتمع لصالح الغرب، حيث أنها انتهت إلى انحرافات أصبحت بموجبها فكرة الحداثة "ترخيصا لبيع الخمور وإباحة العلاقات المحرمة، هذه الانحرافات طمست الجوانب الأخلاقية في الحداثة"[24] فالحداثة استغلت من أطراف مختلفة في محاربة القيم الخاصة بالمجتمعات العربية وانتهت إلى انحلال أخلاقها، لذلك كان من الأولى استغلال محاسن الحداثة "مثل محاسبة السياسية والإعلامية، وأخلاق المهن، وحماية المستهلكين، وحماية حقوق الإنسان، وغيرها من محاسن الحداثة المعاصرة"،[25] أي النظر إلى إيجابيات الحداثة وتلافي سلبياتها، ولاسيما تلك التي تتعلق بقوانين الممارسات السياسية والاقتصادية...وحقوق الإنسان من أجل إرساء قيم الحرية والإعلاء من قيمة الإنسان وغيرهما من القيم السامية التي تأسست عليها.

بعد هذا النقد المقدم للحداثة الغربية وروادها لاشك أن السؤال الذي يطرح نفسه، هو كيف نتعامل مع الحداثة الغربية؟، يجيب طه عبد الرحمن:" ينبغي أن ننطلق مما نستطيع أن نشترك فيه مع أهلها، والمشترك الأول بيننا وبينهم هو إمكانية الإبداع، فقد برهنوا على أن الحداثة إبداع فينبغي أن نكون مبدعين مثلهم، فإذا ينبغي أن نستعيد قدرتنا الإبداعية من أسلافنا كما استعادوها هم من اليونان واللاتين حتى نكون حداثيين"[26] فالشرط الأول للحداثة هو الإبداع لأن "الحداثة أن تنشئ من عندك الجديد وتولده، وتأتي بما يندهش له غيرك ويتلقاه لا بعقله فقط، بل أيضا بوجدانه وهو يحمل له قيما أو قيمة جديدة"،[27] إذن لابد من الاستفادة من تجارب الآخرين ولكن بعيد عن التقليد المحض لهم عن طريق التحلي بروح الإبداع والالتزام بقيمنا الخاصة وعن طريق خلق تفاعل إيجابي بين الأنا والآخر.

الخاتمة:

نستنتج في الأخير أنه من الصعب أن نحدد مفهوما دقيقا للحداثة، لأنها ترتبط بمفاهيم متعددة وتصورات مختلفة، وفي مجمل القول يمكن القول أنه حقبة تاريخية أعقبت فترة القرون الوسطى عرفت من خلالها أوربا تطورا تدريجيا في شتى الميادين ينطلق من العصر الحديث إلى فترة ما بعد الحداثة التي تعبر عن مرحلة متقدمة من الحداثة، وقد تم استقبالها في الفكر العربي وفق رؤى متباينة منها من تهلل بقدومها وتعتبر حتمية لا مفر منها لركوب مصاف التقدم والتحضر عن طريق استلهامها من الغرب بآليات مختلفة لعل أهمها ربطها بالتراث كماض الأمة وفق قراءة جديدة لمضامينه وتعاليمه بالاستفادة من تجارب الآخرين وبناء حوار فعال وإيجابي معهم، ومنها من رفضها مؤكدا على سلبياتها وتداعياتها على شتى الأصعدة عن الطريق الدعوة إلى حداثة محلية خاصة وهي التي تظل استشرافا وطموحا، وصفوة القول أنه لا مفر من الاستفادة من الحداثة الأوربية لكن عن ليس عن طريق الانفعال بها، بل بالتفاعل معها، وليس بالتنكر للتراث بل بالتواصل معه والتفاعل مع معطياته عن طريق قراءة جديدة لمضامينة وفق روح العصر.

مصادر ومراجع البحث:

- الجابري محمد عابد، التراث والحداثة، دراسات و ومناقشات المركز الثقافي العربي، ط1، 1991.
- أبو زيد نصر حامد، مفهوم النص–دراسة في علوم القرآن–، المركز الثقافي العربي بيروت لبنان، ط2005،6.
- اركون محمد، قضايا في نقد العقل الديني،–كيف نفهم الإسلام اليوم– تر: هاشم صالح، دار الطليعة بيروت، لبنان، ط3، 2004.
- باسم علي خريسان، ما بعد الحداثة–دراسة في المشروع الثقافي الغربي– دار الفكر، دمشق سوريا، ط1، 2006.
- بلقزيز عبد الإله، العرب والحداثة–دراسة في مقالات الحداثيين– مركز دراسات الوحدة العربية بيروت لبنان، ط1، 2007.
- بومدين بوزيد، التراث ومجتمعات المعرفة، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت لبنان، ط1، 2009.
- جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، ج 1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 2005.
- لالاند أندري، موسوعة لالاند الفلسفية، ج2، ، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت لبنان ،ط2، 2001.
- قاسم شعيب، تحرير العقل الإسلامي، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط1، 2007.
- طه عبد الرحمن، روح لحداثة،–المدخل إلى تأسيس حداثة إسلامية– المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط2، 2009.
- طه عبد الرحمن، الحوار أفقا للفكر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر،بيروت لبنان، ط1، 2013.
- طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق–مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة العربية– المركز الثقافي العربي بيروت لبنان، ط3، 2006.
- مسرحي فارح، الحداثة في فكر محمد أركون، الدار العربية للعلوم ناشرون، بروت لبنان، ط1، 2006.
- سبيلا محمد، الحداثة وما بعد الحداثة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء المغرب، ط2، 2007.
- يعقوبي محمود، معجم الفلسفة، الميزان للنشر والتوزيع، ط2، 1998.

الهوامش:

1. جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، ج 1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 2005، ص 852.
2. المرجع نفسه ص نفسها .
3. يعقوبي محمود، معجم الفلسفة، الميزان للنشر والتوزيع، ط2، 1998، ص 33.
4. لالاند أندري، موسوعة لالاند الفلسفية، ج2، ، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت لبنان ،ط2، 2001، ص 822.
5. [1]قاسم شعيب، تحرير العقل الإسلامي، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط1، 2007، ص 66.
6. باسم علي خريسان، ما بعد الحداثة–دراسة في المشروع الثقافي الغربي– دار الفكر، دمشق سوريا، ط1، 2006، ص 20-21.
7. طه عبد الرحمن، روح لحداثة،–المدخل إلى تأسيس حداثة إسلامية– المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط2، 2009، ص 23.
8. [1]المرجع نفسه، ص نفسها.
9. طه عبد الرحمن، الحوار أفقا للفكر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر،بيروت لبنان، ط1، 2013، ص 96-97.
10. مسرحي فارح، الحداثة في فكر محمد أركون، الدار العربية للعلوم ناشرون، بروت لبنان، ط1، 2006، ص 43.
11. سبيلا محمد، الحداثة وما بعد الحداثة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء المغرب، ط2، 2007، ص 18.
12. المرجع نفسه ص 8.
13. نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص–دراسة في علوم القرآن–، المركز الثقافي العربي بيروت لبنان، ط2005،6، ص 6.
14. الجابري محمد عابد، التراث والحداثة، دراسات و ومناقشات المركز الثقافي العربي، ط1، 1991، ص11.
15. المصدر نفسه، ص 18.
16. بلقزيز عبد الإله، العرب والحداثة–دراسة في مقالات الحداثيين– مركز دراسات الوحدة العربية بيروت لبنان، ط1، 2007، ص 41.
17. بومدين بوزيد، التراث ومجتمعات المعرفة، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت لبنان، ط1، 2009، ص 42.
18. الجابري محمد عابد، التراث والحداثة، دراسات و ومناقشات مصدر سابق، ص 16.
19. محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني،–كيف نفهم الإسلام اليوم– تر: هاشم صالح، دار الكليعة بيروت، ط3، 2004، ص 212.
20. المصدر نفسه ص 213.

* حسب طه عبد الرحمن الحضارة الغربية المترتبة عن الحداثة الغربية هي حضارة قول لا حضارة فعل، لأنها عرفت غلبة الأول –القول– للثاني –الفعل باجتياح طوفان لفظي لها نحو –انفجار المعلومات، ثورة الاتصال، انعتاق الكلمة سيادة القلم....في عالمنا اليوم لحساب غياب الفعل والعمل الذي تقتضيه الأخلاق الحقيقية، وهو الذي قامت عليه حضارتنا الإسلامية الأصيلة منذ القديم على خلاف حضارة اليونان والرومان التي قللت من قيمة الفعل والعمل منذ القديم وهو ما استمر اليوم في الحضارة أو الحداثة الغربية.

21. طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق–مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة العربية– المركز الثقافي العربي بيروت لبنان، ط3، 2006، ص78.
22. المرجع نفسه، ص 15.
23. طه عبد الرحمن، الحوار أفقا للفكر، مصدر سابق، ص 82.
24. المرجع نفسه ص 33.

25. المرجع نفسه ص نفسها.
26. طه عبد الرحمن، الحوار أفقا للفكر، مصدر سابق، ص 106.
27. المصدر نفسه ص 76.